

المقامة الرضوانية

أ.د. عبد الجليل مرتاض

جامعة تلمسان

إيه أخي رضوان ! كلنا من نجران بن زيد بن يشجب ابن يعرب بن
قحطان أخي عدنان اللذين صلا وحالا في البلدان من البوغاز إلى همدان، ثم
يكونا ذوي مطايا محارب، بل حسان، حتى ما بقعدن بأرسان،

إيه أخي رضوان، تحية غبرك للمناجحة وبيت المقدس و إربد وعسمان؛

فما لبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم غنت آياته منذ أزمان

فما لبك من ذكرى حبيب وعرفان بل من ذكرى حبيب و رضوان

شَيْخَنَا رَضْوَان ! طُبْتُ مُقَاماً، وَسَمَوْتُ مُقَاماً سَوَاءً بِسَوَاءٍ فِي عَاصِمَةِ
الزِّيَارِيِّينَ، أَوْ مُضَارِبِ الْمَاشِيِّينَ، ذَوِي الشَّهَامَةِ وَالْجُودِ وَالْعِرْفَانِ، أَحْفَادِ سَيِّدِ
الْمُرْسَلِينَ، أَعْدِلِ الْمُلُوكَ فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

إِيه، شَيْخَنَا رَضْوَان ! نَحْنُ وَأَنْتُمْ بَنُو عَمُومَةٍ وَإِخْوَانِ، أَلَمْ يَأْتِ إِفْرِيقَشُ
مِنَ الْيَمَنِ؟ أَلَمْ يَعْبُرْ بِخِيُولِهِ الْحَبِشَةَ وَالسُّودَانَ؟ أَلَمْ يَضْرِبْ بِجِرَانِهِ فِي الْقَيْرَوَانِ؟
كَأَنَّمَا مَهَّدَ السَّبِيلَ لِعَلَيْسَةَ الْجَمِيلَةِ الَّتِي هَاجَرَتْ مِنْ صُورَ لُبْنَانَ؟ أَلَمْ تَمْتَرِجْ دِمَاءَ
الْأُمَاذِيقِ الْأَشَاوُسِ، وَهَمَّ حَامِيُونَ، بِدِمَاءِ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ عَلَيَسَةَ، وَهَمَّ سَامِيُونَ؟
تَصَافَى الشَّعْبَانِ، وَعَاشَا فِي سَلَامٍ وَرَخَاءٍ وَأَمَانٍ، إِلَى أَنْ كَانَ الرُّومَانُ، الَّذِي أَتَى
عَلَى الْأَخْضَرِ وَالْيَاسِ وَالْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَالنَّحْلِ وَالرَّمَانِ،...

أَجَلْ، شَيْخَنَا رَضْوَان ! ضَاقَتْ الْأَرْضُ تَمَا رَحَّبَتْ بِأَحْفَادِ إِفْرِيقَشِ
السُّلْطَانِ، فَكَرِهُوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَهَمَّ إِخْوَانُ، وَأَبَوَا إِلَّا أَنْ يَغْرُبُوا مَرُوراً بِبُؤْتَةَ
وَسِيرَتَهُ حَتَّى أَضْلَوْا عَلَى غِلْيِزَانَ وَوَهْرَانَ، وَمَا أَدْرَاكُمْ مَا وَهْرَانُ ! بِلَدِ الْأَسُودِ
وَالْفَرَسَانِ، مَوْطِنِ الْإِبْدَاعِ وَالْآدَابِ وَالْفِكْرِ وَرَاحَةِ النُّفُوسِ وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ، لَوْلَا
ضُرَاتُكَ، يَا وَهْرَانُ، أَمْثَالُ دِمَشْقَ، وَفَاسَ، وَأَرْضِ الْكِنَانَةِ، وَبَغْدَادَ،... وَلَا سِيَمَا
تَلَمَّسَانِ مَا كُنْتَ مَدَّعِيّاً أَنَّكَ جَنَّةُ الرُّضْوَانِ.

بَيْخُ بَيْخُ، رَضْوَانُ، لَطَالَ جَالَدْتُ وَكَابَدْتُ مِنْذُ كُنْتُ طِفْلاً تَنْهَوُ وَتَنْبُ
وَتَبَّانِ الْحَمْلَانَ بَيْنَ الزَّهْرِ وَالرِّيحَانِ وَشَقَائِقِ النِّعْمَانِ، ظَلَلْتُ تَعْلُو تَارَةً، وَأُخْرَى
تَكْبُو مُتَحَدِّياً الْأَقْرَانَ وَالْخُدَّانَ: "أَنَا ابْنُ الْحُسَيْنِ، لِلْعَالَمِ عَطَشَانُ، وَإِذَا رُمِيتُ

بسهم خطب، فعيناي لا تنهملان، أنا لست كأبي من الجلائن، نعم، أنا فاني،
لكن لا أغري في سبيل مُبتَغاي بضلالة الرمان، ولا حتى نشوات الحسان، ولا
أسهو عن أداء الأركان، أحلم بغد باهظ ثمين، لكن دونه منعرج حاسم ثخين،
مهجتي في فلسطين، وأشجائي مع والدي الحسين، وعقلي في العلم والتحصيل
قرين، لا صاحب كريم معي أو ضنين، ولا بعيد قاس أو قريب حنين، إلا ربك
العظيم الذي جعلنا نطفة في قرار مكين، ثم ردنا أسنل سافلين...

بَحْ بَحْ، أخانا رضوان! جمعت تبلى شهادة تلو أخرى بثبات لا يخو
من إصرار وجنون، لم تكذ تذر متناً من المتون، إلا تحريره لغات وشواهد وفتونا،
ثم كنت لا تُعْثَم أن قضمها هضم الجوعان، وتعبت بما عبت العلمان. لا
يستعصي منها عنك ما هو شطون أو حرون، بعد الإعدادية والثانوية نلت
الماجستير والعلمية في خمس سنين، وسواك بقوا خلفك هائمين متسائلين: أئني
لك كل هذا صاحبنا من غير معين، وفي ظرف قياسي ميين، ولم نسمع لك
صوتاً أبخ من الرنين ولا نزعاً من الأنين؟! فُتُّنَّا بحدك وذكائك يا رضوان، ولم
تُفُتُّنَّا بوفرة المال والبُنيان. ولا حتى قوة البنان. لا تُشْمِتُ بآترايك يا رضوان، إذا
عدت سريعاً إلى عمان، وقل فيها قولاً يشع بالحنان، بل لن تفعلها يا صاحبنا
رضوان، فأنت شاب شريف كريم النفس، سليم الجنان، ما عهدناك إلا امرأ
عزيراً ثمقت البخل والجبان، وأنت الذي كثيراً ما أوصيتنا بحكمة الكتمان...

إطمئنوا يا خلّائي، لن أنبس بيت شفة لو قُطع مني وتيني، إطمئنوا يا خلّائي،
سرُّكم منقوش من حجرٍ في حبيبي؟.

بَخ رَضْوَان، يا عظيم الشأن، يبدو أن منامات الوهراني سبق لها أن
اكتظّت بما أفسحت بأحزاد إفريقش بن اليمان، أيعودون التهقيرى وهم
بالانتصارات نشوانون؟ كلاً، ليواصلنّ مسارهم. لا هم جذلون، ولا هم
مستأفون، إلى أن توقّف بهم الزمان، ولا ح بهم أن يعُصروا مضاربهم في أرجاء
تمسان، عاصمة بني زيان، رباط الحوى والحين، وبوارق السّحر الكمين، مدينة
المثين، من علماء وأدباء عابرين ومقيمين، "ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين".
إيه يا رَضْوَان، يا ابن الأكرمين، صلت وجلت علماً واقتداراً بين الهالليين، لم
تدع شاعراً مفلقاً من العامريين، ولا مُتلاً أو فحلاً من جاهليين أو إسلاميين، لم
تذرّ دائرة عروضية إلا تفرّستها تفرّس خبير ذي مكنة متين، ولا شائبة من
شوائبها إلا افترستها افتراس ضيغم غير آمن في عرين، وما "منظومة" سيدي،
بسرّ دفين، على ثلة من البلطحيين، بأنهم التبا قبل أن يرتد إليهم طرفهم البعين،
والخير في أحشاء صاحبه وسنّ حنين، انتفع بعروضها وموسيقاها كل طالب
وباحث غبين، فغثها سمين، وشرحها غير هجين، وفهمها بين بين، لم تأل فيها
جهداً من عمرك الثمين، ما ذلكم إلا أمانة من أمارات منهحكم التعليمي
الرصين.

إيه شيخنا رضوان ! يوم تأمّمت يدعان (وإد به مسجد للنبي ص)،
مُعسكر هوازن يوم حنين، لامتحان عمل شريف غير ظنين ولا ضنين، ولو
شئت، بعملك، لعلمت في الصين، وأخلصت في عملك إخلاص الأتقياء
المؤمنين، غير مشنوء ولا مشين، إلى أن تنوء طويل لسان: "احتسب يا دكتور
رضوان !"

فيقول رضوان: آئت جاد فيما تقول أم مرّحان؟

♦ وما شر الثلاثة يا رضوان؟ ألا تحتسب مثل الإخوان؟

♦ ذو الحسنيين ما مثله إلا ذو النورين.

♦ هذا كفر يا رضوان، أأنشبه عثمان؟

♦ فيحيب رضوان: بل إيمان يا بذيء اللسان، أتر الشهادة بعد إصرار وعوان،

رضوان المصونة كرامته في كل مكان لا يهان، والله ما بقي لي معكم إلا ثانية

أو ثوان: فتمثت بسيد الجاهليين:

ولا تبقي "دموع" الأولينا

مقدرة لنا ومقدرينا

خبرك اليقين و تخبرينا

لوشك البين أو خئت الأمانة؟

وأنظرنا خبرك اليقيننا

ونصدرهن حمرأ قد رويانا

ألا هبّي بصحنك فاصبحنا

وإنا سوف نذكر كنا المنايا

قفي قبل التفق يا ظغينا

قفي نسألك: هل أحدثت صرماً

أبا هند، فلا تعجل علينا

بأننا نورد الرايات ييضاً

وَأَيَّامَ لَنَا وَلَهُمْ - طِوَالِ
عَصِيئَتِ الْمَلِكِ فِيهَا أَنْ لَدِينَا
بَأَيِّ مَسْئِيَةٍ عَمَّرُوا بَنَ هِنْدِ
نَكُونُ لِخَلْفِكُمْ فِيهَا قَطِينَا
تَهْدِدُنَا وَأَوْعِدُنَا رُوَيْدَا
مَتَى كَسْنَا لَأَمَّاكَ مَقْتُولِينَا؟!

لا أبا لسانك يا رضوان! حرمت حقائبك، وأنت بين أمرين: طرقت باب البحرين أو العود إلى فلسطين المغتصبة من إسرائيل، على مرأى ومسمع من العرب والمسلمين، كيف يغمض ضم حفن عن تدليس أولى القبطين، وتالي الحرمين؟ كيف يؤسسون ويهجعون عن مجمع النبين بسيد المرسلين. مرقى الأسراء والمعراج إلى أعلى عليين؟ وبعد جزر ومد متسارعين، وفك وربط متحاذين، ألفت نفسك من الشاكرين لأم البنين:

تَسْعُ الْبِلَادُ إِذَا أُنْشِئَتْ زَائِرَا وَإِذَا هَجَرْتُكَ ضَاقَ عَنِّي مَضْجَعِي
أَلَا حَيَّ ابْنَةَ الْعُلُوِّ مَيَّا وَإِنْ لَعُدْتُ لَوَاهَا مِنْ لَوِيَّا
لَعَمْرُكَ إِنِّي لَأُحِبُّ مَيَّا كَحُبِّ مُحِبٍّ ضَمَانَ رِيَّا
وَلَوْ أَنِّي أُخِيرُ بَيْنَ مَيَّ وَلَيْلَةٍ نَاعِمٍ لَأَحْتَرْتُ مَيَّا
أَلَا يَا مَيَّ إِنَّكَ أَلْتِ مَيَّا أَعَزَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَنِّيَا

"لا تبأس يا رضوان، حَكَمْنَا هَذَا الرِّمَانَ. أَنْ لَا تُغْلِقَ بَابَ إِلَّا لِنُفْتحِ بَابَانِ. وَلَحْنُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، مُسْتَوْرُونَ، وَبِرَضَى اللَّهِ قَانِعُونَ، وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ"؟
لَا فُضُّ فُوكِ، يَا أَطْهَرَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. وَلَوْلَاكَ أُمُّ الْبَنِينَ، لَتَغِبَ (هَكَذَا) رِضْوَانُ مِنْذُ سَنِينَ.

لا أب لثقاتك يا رضوان ! كلنا إخوان. من عدنان أو قحطان، أبيت إلا أن
تغامر عثمان. لتفتو سبل إفريقش منك اليمان. وثقف راجلتك في آفاق
السوسيين وخلفائهم الثوريين. لتعمل بضع سنين. ثم نادتك تيهرت عاصمة
لرسميين، تيهرت التي لا يزال يلسك نخوها الحنين. أنسيت. مناجي. يوم
أقسمت لنا باليسين إلا أن تروور رأسك الشحين. ولو نبعض حين. فحارثاك
بحارة ابن أمين (ندم لأي نوس).

إيه. تيهرت. أرض المنها والعولان، معقل القروسية والفرسان. معبر الفاحين.
ومستراح الصحابة والتابعين. كلنا ذكرك. تيهرت. موطن السحر والبيان.
نحلق لذكرك الجمان. لا يحس المزل في ربك بنقص في السحنان. ولا يشعر بذرة
من الشنان. أما جودك، فلا يحتاج إلى دليل أو برهان. وقد سارت به الركبان
من الصين إلى توفان (بلد غرب تلمسان).

وأخيراً. أخيراً. حانت ذات ثلاث وثمانين بسمسان. فرحبنا بك ترحاباً مغسوراً
بالحب والخفتان. وإن هي إلا أيام حتى أقر لك الجميع بالذكر والعرفان. ألم
تكن أول من أطر في جامعة الزياتيين. رسالة ماجستير في شعر القري سنة
تسعمائة وثمانين؟ ألم تكن أول من أشرف على أول رسالة دكتوراه دولة في
السياسيات سنة أربع وتسعين؟ ألم نسب دعوة الداعين من لالة مغنية إلى هضبات
بكر من حماد دي الشعر العذب السحين. الذي كتل الدهر رويته الجاحدين
دون أمر ولا وهين؟

الله دُرْك يا رضوان، إذا حاضرت كنت أفصح من سحبان، وإذا أعطيت كنت أسخى من النعمان، وإذا أصلحت ذات اليين كنت أحكم من لقمان، وإن استفزك جاهل كنت أحلم من معاوية بن أبي سفيان، لا أصدّق، يا رضوان، مضت ثلاثة عقود كالحفّاقان، لا أمان في الحذّاقان، لا مكبح له ولا عنان.

إيه، الشيخ رضوان، يوم هاتفتنا: أي أنتما يا رفيقنا؟ في منزلكما أم تتجولان؟
- الشيخ، نحن في ضواحي بن سكران.

ماذا تفعلان؟ لم يسبق لكما أن تجولتما في هذا المكان. وتمضي الأيام، والدقائق، والثوان.

أين أنت يا الشيخ رضوان؟

- أين أحوك يا رفيع الشأن، أنا طريح الفراش وحيد "غُلبان"

الشيخ، ما أنت إلا مُستَوٍ الآن، إلى طاولة أسفل تونان، تلتهم وصحبك الحيتان.

- من أحرّك بهذا الإعلان؟ إنس أم جان؟ آيا كان مصدرك يا فصيح اللسان، هذه بتلك، والزمان دوران، لا يقبل النسيان، يغبط الريان، ولا يرحم الظمان؟

أنسييت يا الشيخ رضوان ماذا أسرّرت إلى طيبة الأسنان؟ يا دكتورة، نحن ثلاثة فرسان، إثنان، ولاسيما أحدهما، لا يُعييان، وأنا ورائهما هاجع أو وسنان، ومع ذلك أشعر بالعباء والغثيان، هل لك بلسم نفعان، يا منبع الحنان؟. ونحن على

مشارف مخازن الرومان (أي تيارت): هل قدت كَيْت وكَيْت لطيبية الأسنان يا رضوان؟ نعم، نعم، قمتها يا رفيقان، لو كتما مكاني، ماذا عساكما تقولان؟ أخواك مازحان، يريدان أن يزيلا عنك العياء والغثبان، ونحبا لك الراحة والسَّوان.

وتمضي الأباء، والشهور، والسَّوان، يا رضوان، هل تناميت، يا الشيخ رضوان، يوم ابتعت حمامتين. لعنك تسلي كهديلهما عن رفيقين: لم يعتزلأك راضيش؟ إحداهما باضت بيضة أو بيضتين، وأخرهما لا يُسْعُ لها إلا هدبل خنين، وأنت تراوخ بين خطرتك. كأنما أنت في نم لُجِّي مثل سفين... وجأثها، ورب أسماء ذات النطاقين:

- الشيخ. وما دخل أخيك عباس في فضول منيه؟
- لم لا تنقل بالأستاذين: مرتاض أو زين الدين؟
- أفرأ بأخيك ألوهنا؟ مرتاض يقول لي: ادبعتها بسكين، وزين الدين مسكين، حاله مثل حال أخيك الحرين.
- يا عباس، أنت رجل فطين، ومستعني المعين
- الشيخ رضوان، إخر الشيطان، متى كان أخوك عباس طيب حيوان؟
- أنت لا تريد لأخيك "العلنان" أن يبيت حدلان.
- إذا طُبَّح حرقاً في الحين، وابدأ غداً بسوق الاثنين.
- ألا بتوقف هذا الخائف عن الرنين؟

- وربّ ذي النون وذي القرنين، إنك لأثلجت فؤاد أبي الحسين.

سبحان الله رامت الحمامة، وباضت مثل أختها بيضتين.

إيه، الشيخ رضوان، كلما غزا ليلنا فجر صادق دون تسليم ولا استئذان، إلا زدنا هرمًا، وصغر الزمان، وعظمت هواجسنا بالعالم الآخر، وقلّ الأمان، وراينا الضمان، ونفرتنا الجوّاري والحسان، وألفينا غابريّا يأتينا مقودين معاً دون سابق إنذار بعنان. إلى جحيم أو جنان، بينهما حجاب من ربك لا يغيان، فبأيّ آلاء ربكما تكذبان؟.

هنيئاً لك الحفل الذي أنت حفته وحفل لمن ربي و شاخ مُبقنا

هنيئاً لك اليوم للذي أنست يومه ويوم لشيخ ما تقاعد مُزينا

هنيئاً لـكم، رضوان، ذا الحفل، مثلاً ترى، جلّ يكاد ينطق معلنا؛

لهذا الكريم ذمة في رقابكم فإن تُكرموا تكرموا الخلد لا الفنا

وإن تذرّوه فالعظم قبل أن يتوجّ ماجدٌ نظيف من الحنا

يكاد يعفّ في شمائه الكري مَحْنِدُها إذا استشير عن المنا

كريم بطبعه وليس بجوده إذا سئل المعروف قارع مُحسنا

كأنّ به مسأ من الجود والقرى إذا بسطت يداه إنّه أنعمّا

